ISSN 2170-0796

مجلة البدر
جامعة بشار

غزة والكلاب. / مقطع من رواية اليربوع

د فيلالي حسين

كلفتني الجريدة بإعداد تحقيق عن طقوس الزواج وختان البنات في المشرق، كان علي أن أخذ الطائرة من باريس إلى القاهرة لكنني أخبرت في آخر لحظة أن كل الرحلات الموجهة من باريس إلى القاهرة محجوزة حتى نهاية جانفي.

سافرت إلى الأردن نزلت بفندق الهيلتون سمعت عن انتشار مرض غريب بالشرق الأوسط لم يستطع الأطباء تحديد أسبابه.

يبدأ المرض بارتفاع عدد الكريات الحمراء في الدم، يتغير شكلها، وتأخذ شكل دبابيس حادة يهاجم بعضها الكبد، والقلب و يخرج عدد كبير منها مع مسام الجلد حتى يفرغ الجسم و يبيس .

ارتفع عدد الضحايا وتزايدت مخاوف الناس من أن يكون سبب ذلك بعض الإشعاعات النووية المتسربة من ديدمونة بإسرائيل، كتبت مقالا قصيرا أرفقته ببعض الصور وأرسلته إلى الصحيفة بباريس.

في المساء اقترح علي أحد الزملاء الصحفيين دخول غزة ترددت في بادئ الأمر لكنه وعدني بألا نتجاوز يوما واحدا .

وصلنا إلى أحد المرتفعات القريبة من غزة اقترح دليلنا أن ننتظر حتى الليل ثم نواصل السير.

في الساعة الثالثة صباحا سمعنا سعال محرك سيارة متقطع يقترب من المكان، طمأننا الدليل و اخبرنا أن صديقه سيتكفل بإتمام السفر وانسحب.

كان السائق في الأربعين من عمره أو يزيد بقليل قوي البنية يدخن بشراهة تقرأ في وجهه هما لا ينجلي.

انزوينا في مؤخرة السيارة وانطلقت بنا عبر مسالك وعرة، نتوقف تارة،و نترجل أخرى ثم نركب و نتابع السير، وكلما توقف السيارة يبتعد السائق عنا قليلا يجري بعض الاتصالات الهاتفية ثم يعود نركب السيارة ودون أن يكلمنا يدير المحرك المصدور بعصبية فتنطلق السيارة تسعل .

صمت السائق وتصرفاته أثارت فضولي فحاولت استدراجه للحديث:

-كيف حال غزة؟

و انكسرت الجرة مرة واحده:

-الله يلعن العرب كلاب الأمريكان.

عذرته ،وتفهمت وضعه، وقلت مواسية :

-ربي يفرج.

-صاح كالمستجير:

-الله ينصر الشيخ بن لادن.

ISSN 2170-0796

وصلنا غزة فتح السائق الباب الخلفي أشعل سيجارة جذب نفسا عميقا بدا كأنما يمتص قربة فارغة في صحراء قاحلة ثم اخرج زفيرا ككبش ذبح بسكين غير حادة، وانسحبت السيارة تسعل وتخرج من رئتها دخانا يوحي بدنو الأجل.

في غزة الليل يعقب الليل،والظلام يعانق الظلام والنهار ينتحر في الجرح، في كل شبر ينبت ثأر،ومن كل قبر تطل هامة عطشى تصيح، ولما يرعم الثأر ويستوي سوقه يحتضن الهامة ويسقيها حتى ترتوي.

سألنا عن بيت الحاج محمود فأخبرنا أحد الشباب أن طائرة إسرائيلية قصفته بصاروخ حوله إلى أنقاض،طلبنا منه أن يدلنا على البيت و في الطريق صادفتنا عجوزا تقرع بعصاها الأرض تتبين الطريق وهي تنادي :صلاح، صلاح.

أخبرنا مرافقنا أنها على هذه الحالة منذ أن اغتالت إسرائيل ابنها الوحيد سنة 1982، تخرج كل صباح تحرث بخطاها المرهقة الشوارع حتى إذا ما جن الليل تعود إلى بيتها.

طرقنا باب الشيخ محمود فتحت زوجته فصاحت إبراهيم ابن أخي احتضنته بقوة وراحت تقبل وجهه ورأسه ويديه والدموع تنسكب على خديها ثم تفطنت إلى وجودي فراحت تمسح دموعها وتستغفر الله ثم عانقتني :

-مرحبا بنيتي.

قال:

-هذه صحفية زميلتي.

دخلنا على الحاج محمود، كان ضريرا، وطاعنا في السن رحب بنا وطلب من زوجته أن تحضر القهوة.

بينما كان زميلي يسأل عن الأهل والأصدقاء كنت أجوب ببصري الغرفة وتساءل عن سر صور الرجال والأطفال والنساء والشيوخ المعلقة على الجدران ، وكأن زميلي قرأ ما يجري في خاطري فوفر علي طرح السؤال وقال:

-•هذه صور الشهداء من العائلة.

-•قال الشيخ بصوت فيه إحساس بالشعور بالعز:

-•عشرة منهم من أسرتي.

-•قلت:

-•الله يرحمهم.

حاولت اختبار وعي الشيخ فقلت:

-سيعقد الرؤساء العرب اليوم اجتماعا طارئا يدرسون فيه مأساة غزة.

قال:

-اليهود أتعبوا الأنبياء والرسل ثم أردف:

-الوحيد الذي فهم إسرائيل هو ياسر عرفات كان يقول:

-إنهم لا عهد لهم، ولا يؤمن لهم جار، ولكني سأخضع لرئي الرؤساء العرب وفاوض إسرائيل على قبض الريح.

علمت في غزة أن أحد العرب الذين لهم علاقة مع إسرائيل طلب من الرئيس عرفات التنازل عن حق عودة اللاجئين والأسرى مقابل تتويجه ملكا على الضفة والقطاع لكن الرئيس غضب وقال للرسول كلاما جارحا.

ISSN 2170-0796

الرئيس كان يقول لمن كان يثق فيهم:

-لا أخشى عليكم من الأعداء، وإنما أخشى عليكم من تشرذمكم ،ومن تفاهة أحلامكم، ومن ثقتكم في المحافل الدولية .

لم يصدق البعض ما كان يقوله الرئيس و كانوا في اجتماعاتهم السرية يضحكون ملأ أشداقهم ويستغربون من كلامه، ويقولون حديث خرافة.

وحتى عندما كان يقول :

-لا تبنوا للفلسطينيين مخيمات في دولكم ،ولا تتاجروا بقضيتهم، ولا تجعلوا شعر مظفر النواب يصدق عليكم.

لم يسمعوا كلامه، كانوا ينظرون إليه باستهزاء كمن يستراب في عقله وكان الرئيس يدرك عجزهم عن فهم مرامي كلامه.

ولما يئس منهم و من المحافل الدولية راح يقول:

-رحم الله الشاعر الجزائري مفدي زنريا القائل:

لا ترتجي العدل من قوم سماسرة

خير البرية منهم غير منتظر.

مصيرنا بالدم الغالي نقرره

في محفل الموت لا في عقد مؤتمر

الرئيس وجد مسموما، أو مقتولا ، وسلاحه في يده قيل أنه طعن في الظهر.

بنوا للرئيس تمثالا من برونز، ودبجوا في مدحه قصيدة عربية وذبحوا عند نصبه قضية أزلية وراح دمه هدرا.

وقيل أن دابة عملاقة لا تزال تخرج كل ليلة عند قبره تردد :

الثأر، الثأر، حتى إذا ما داهمها الصبح، ويئست من الإجابة اختبأت في قبره.

كتبت مقالة عن معانات الأطفال والمرضى بغزة وأرسلتها إلى الصحيفة.

ولم يتأخر الرد من باريس هذه المرة وطلب مني الدخول فور استلام البرقية.

استقبلني رئيس التحرير وسألته عن سبب البرقية فتشاغل بملف كان موضوعا أمامه.

سألته عن عدم نشر المقالتين اللتين أرسلتهما من الأردن، فتح الملف الموضوع أمامه ثانية فأخرج لي إشعارا بالعزل من الصحيفة ولم يعلق.

قبل أن أغلق باب المكتب خلفي ناداني، ولما استدرت أشار بيده قائلا:

- شلوم.

أدركت عندها أنني كالجسم الغريب الذي يحاول اقتحام جسد محصن وأن الشرق شرق والغرب غرب وإسرائيل شرق غرب، والجنوب، جنوب وأن العرب تجري وراء صدى كاذبا تارة يجرها إلى الشرق وأخرى إلى الغرب ولما يجد الجد يتوحد الاتجاهان فيصبحا شرغر.